Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 1, No. 11, Sep. 2018

Published on Web 31/10/2018

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الأول ـ العدد الحادي عشر، سبتمبر 2018م

أثر العصبية القبلية في شعر العصرين الجاهلي وصدر الإسلام

د. محمد محمد عيسى فيض

قسم اللغة العربية – كلية الفنون والاعلام – جامعة مصراتة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لا شك في أن العرب أمة عظيمة في أخلاقها وأفعالها، وأن تاريخنا نحن العرب متصل كل الاتصال بماضينا، وما التاريخ إلا ذاكرة تختزن مفاخر الأمة وآلامها وآمالها، والأمة التي تفقد تاريخها أشبه بالإنسان الذي يفقد ذاكرته، فيهيم على وجهه، ويحار لا يعرف له مستقراً، ويضيع في غمرة الأحداث وزحامها.

لقد ظهرت العصبية القبلية العربية في العصر الجاهلي وصدر الإسلام وكان لها أثرها على الشعر العربي الذي أدى دوره في مواكبة الأحداث المصيرية، سيحاول البحث هنا تناول هذا الموضوع بالبحث آملاً بذلك أن ألقي ضوءاً ولو قليلاً على أثر هذه العصبية على الشعر في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

وقد حاول البحث أن أجعل هذا البحث خلاصة واختصاراً لما قرأته في الكثير من المصادر عن أثر العصبية القبلية في شعر العصرين الجاهلي وصدر الإسلام، واستدعت طبيعة هذا البحث أن يكون في عنوانين وبعدهما خاتمة، يتناول العنوان الأول أثر العصبية القبلية في شعر العصر الجاهلي، ويتناول العنوان الثاني أثر العصبية القبيلة في شعر عصر صدر الإسلام، وتتناول الخاتمة النتائج التي توصل إليها البحث.

والله أسأل أن يكون هذا البحث مصدر نفع وعون للدراسين، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والنجاح، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

عندما يرتحل الباحث في عالم الجزيرة العربية يستوقفه مصطلح قديم متجدد التداول ألا وهو (العرب)، ولقد أفاض البحاثة والعلماء قديماً وحديثاً في الحديث في هذا المصطلح لما له من أهمية في تاريخ العرب والأدب العربي.

فمما أجمع عليه العلماء تقسيم العرب إلى ثلاثة أقسام: عاربة ومتعربة ومستعربة[1]، ولقد تفرعت من الأقسام الثلاثة السابقة قبائل شتى قطنوا الجزيرة العربية ككل مجتمع لابد من انقسامات وتحالفات تميزهم عن غيرهم، وتجعل في هذا المجتمع ظواهر خاصة ستؤثر على الحياة بكامل جوانبها فيما بعد.

ولقد برزت العصبية القبلية أبرز ما تكون في العصر الجاهلي، حيث ظهر هذا الإحساس بصورة جلية، إذ جعلوا من كل قبيلة أشبه بدويلة صغيرة لها تقاليدها وأعرافها، والتي لا يجرؤ أحد من أبنائها على الخروج عنها.

ولكن في غمرة الأحداث وتتابعها لا يمكن أن ننسى أن الإحساس والشعور العربي القبلي كان يظهر جلياً في قتال غير العرب، ودليلنا على صحة هذا الرأي أنه عندما قدم أبرهة الحبشي بجيوشه الجرارة ليهدم الكعبة، تجمعت القبائل العربية جميعاً، وهبت لنجدة كعبتهم المقدسة[2].

فقد توحد العرب تحت قيادة (سيف بن ذي يزن) يحاولون درء الخطر الداهم على التراب الطاهر، وعلى المقدسات، وهذا شاعرهم أمية بن أبي الصلت يمدح (سيف بن ذي يزن). ويهنئه بانتصاره على الأحباش المعتدين[3]: [من البسيط].

لَيَطلُبَ الثّأرَ أَمْثَالُ بن ذِي يَزَنٍ ∴ في البَحرِ خَيَّمَ لِلأَعْدَاءِ أَحْوَالاَ

أَتَى هِرْقَلَ وَقَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ ∴ فَلَم يَجِد عِنَدهُ النَّصْر الذِي سَالاَ

وكان التزام (بني رواحة) بالدفاع عن النعمان – الذي طلب النجدة والغوث في مواجهة كسرى الذي حاول قتله يمثل أنبل صور التوجه وقد خلد الشاعران زهير بن أبي سلمى ولبيد هذا الموقف.

يقول زهير[4]: [من الطويل] .

خَلاَ أنَّ حيّاً مِن رَوَاحَةَ حَافِظُوا ∴ وَكَانُوا أُنَاساً يَتّقُونَ الْمَخَازِيَا*

فَسَارُوا لَهُ، حَتَى – أَنَا خُوا، بِبَابِهِ ∴ كِرَامَ المَطَايَا والهِجَانَ المَتَالِيَا*

فَقَال لَهُمْ خَيْراً وَأَثْنَى عَلَيْهِمُ ∴ وَوَدَّعْهُمُ، وَدَاعَ أَنْ لاَ تَلاقِيَا

وَأَجْمَعَ أَمْراً كَانَ مَا بَعْدَهُ لَهُ ∴ وَكَانَ إِذَا مَا اخْلَوْلَجَ الأَمْرُ مَاضِيَا*

ويقول لبيد[5] : [من الكامل].

* روحة: حي من بني عبس .

* الهجان : البيض من الإبل – المتالي : التي تتلوها أولادها.

* أجمع أمراً : أي عزم على أمر يتحدث بعده بما كان فيه – اخلولج : التوى ولم يستقيم – ماضي : النافذ في الأمر العازم عليه.

إِنِي امْرُؤٌ مَنَعَتْ أَرُومَةُ عَامِرٍ ∴ ضَيمي وَقَدْ جَنَفت عليَّ خصُومُ
جهدوا العدواةَ كُلَّهَا فأصدَّهَا ∴ عَني مَنَاكِبُ عِزُّهَا معلُومُ
مِنْهَا حُوَيٌّ والذُّهَابُ وَقبْلَهُ ∴ يَومٌ بِبرقَة دَحْرَحَانَ كريمُ
وغداةَ قَاعِ القُرْنَتَيْنِ أَتَيْتَهُمْ ∴ رَهْواً يَلُوحُ خِلالَهَا التَّسْوِيمُ
بِكَتَائِبٍ تَرْدِي تعوَّدَ كَبْشُهَا ∴ نَطْحَ الكِبَاشِ كَأَنَّهُنَّ نُجُومُ
نَمْضِي بِها حَتَى تَصِيبَ عَدُوَّنَا ∴ وَتُرَدَّ مِنْهَا مَغَانِمٌ وَكَلِيمُ

وقد لمعت في سماء الجزيرة العربية أسماء كوكبة من الشعراء الذين خاضوا بالشعر معركة أمتهم فسجلوا طموحها وآلامها، أمثال الأخنس بن شهاب، والنابغة الذبياني، وبشامة النهشلي، ولقيط بن يعمر الإيادي " الذي كان قارئاً بالعربي والفارسي معاً، ويقوم بالترجمة في اللسانين في ديوان كسرى، وقد علم أن كسرى ينوي تجهيز فرقة من جيشه يقذف بها الإياديين قبيلة الشاعر بالعراق في حملة تأديبية مباغتاً لهم فأرسل الشاعر إلى قومه يحذر قومه حتى لا يؤخذوا بغتة "[6].

يقول الأخنس بن شهاب[7] :[من الطويل].

وَنَحْنُ أَنَاسٌ لاَ حِجَازَ بِأَرْضِنَا ∴ مَعَ الغَيْثِ مَا نَلْقي وَمَنْ هُوِ غَالِبُ
وَإِن قَصَرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وصْلُهَا ∴ خُطَانَا إِلى القَوْمِ الذِينَ نُضَارِبُ
فلِلّه قومٌ مِثْلُ قَومِيَ سُوقَةً ∴ إِذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ المُلُوك العصائِبُ
أَرَى كُلَّ قَوْمٍ قَارَنُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ∴ ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ

ويقول النابغة[8] : [من الطويل].

لَقَدْ قُلْتُ للنُعْمَانِ، يَوْمَ لَقَيْتُهُ ∴ يُريدُ بَنِي حُنّ، بِبَرْقَةِ صَادِرِ*
تَجَنَّبْ بَني حنّ، فَإِنَّ لِقَاءَهُمْ ∴ كَرِيهٌ، وإنْ لَمْ تَلقَ إِلاَّبِصَابِرِ*

* برقة صادر : اسم مكان، والبرقة هي الأرض ذات الرمال والحصى.
* لم تلق إلا بصابر : لم تُلق إلا برجل صابر على المكاره.

عِظَامُ اللُّهَى، أَولاَدُ عُذْرَةَ إنَّهُمْ ∴ لَهَا مِيـمُ يَسْتَلْهُوْنَهَا بالحَنَاجِـــرِ*
وَهُمْ مَنُعوا وادِي القُرىَ مِنْ عَدُوِّهِمْ ∴ بِجَمْعٍ مُبِيرٍ لِلْعَدُّوِ الْمَكَاثِـــرِ*

ويقول بشامة النهشلي(9) : [من البسيط] .

إنّا لنرخصُ يَوْمَ الروعِ أنفسنَا ∴ ولو نسامُ بِهَا فِي الأَمْن أَغْلِينَا
إنّا لَمـــنْ معشرٍ أَفْنَى أَوَائِلَهُمْ ∴ قِيَل الكُمَاةِ أَلاَ أَيْنَ الْمُحَامُونَا
لو كَانَ فِي الأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٍ فَدَعُوا ∴ مَنْ فَارِسٍ خَالَهُمْ إِيَاهُ يَعْنُونَا
إِذَا الكماةُ تنحُّوا أَنْ يَصِيبَهُمْ ∴ حَدُّ الظباةِ وَصَلْنَـــاهَا بِأَيْدِينَا

ويقول لقيط(10) : [من الوافر] .

سَلامٌ فِي الصحيفةِ مِنْ لِقيطٍ ∴ إِلَى مَنْ بالجزيرةِ مِنْ إِيَاد
بِأَنَّ الليثَ كِسْرَى قَدْ أَتَاكُم ∴ فَلاَ يَشْغَلْكُمْ سُوقَ النَّقَادِ
أَتَاكُمْ مِنْهُمْ سِتُونَ أَلْفـــاً ∴ يَزُجُّوْنَ الكَتَائِبَ كَالْجَـــــرادِ
عَلَى حَنَقٍ أَتَيْنَكُـــــمْ، فَهَذَا ∴ أَوَانُ هَلاَكِكُمْ كَهَلاَكِ عَادِ

وقد أكد هؤلاء الشعراء جميعاً انتماءهم الصادق إلى العروبة من خلال المواقف المشرفة وقت الخطر الذي يهدد ركائز الوجود العربي بالاقتلاع آنذاك، وكان الشعر دائماً هو المحرك الرئيس للأحداث الهامة في حياة العرب حينئذ.

يوم ذي قـــار :

لم يكن انتصار العرب على جيوش الفرس الجرارة في يوم ذي قار انتصاراً مادياً فقط، بل حمل في طياته مضامين عديدة، لعل من أبرزها أنه انتصار للعزة والأنفة العربية، فقد حاول كسرى أن يرغم العرب على مطالب مهينة، ولكن في صحوة يوم خالد، رفض العرب الرضوخ لأوامره، فتوقدت جذوة العصبية

* اللهى: كناية عن المال ، وهي في الأصل جمع اللهوة، ومعناها الحفنة من الطعام، تجعل في فم الرحى – لها ميم : جمع لهموم أي عظيم ضخم – يستلهونها: يبلعونها.
* مُبير: مبيد – المكاثر : الذي أنزل إلى المعركة عدداً كبيراً من مقاتليه.

القبلية في نفوسهم، فما كان منهم إلا أن أعدوا العدة وهزموا كسرى وجنوده شر هزيمة، ووقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – وخبر أصحابه بها فقال : اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا وذو قار ماء لبكر قريب من الكوفة، ويعد هذا اليوم من مفاخر بكر[11] .

وقد تغنى كثير من الشعراء بهذا اليوم الخالد من أيام العرب مثل : صناجة العرب الأعشى، ويكفينا قوله[12]: [من الطويل].

أذاقُوهُمُ كأسَاً مِنَ المَوْتِ مُرّةً ∴ وقدْ بَذِختْ فَرْسَانُهُمْ وَأذلّتِ*

تَنَاهَتْ بَنُو الأحرارِ إذْ صَبَرَتْ لَهُم ∴ فوارسٌ مِنْ شَيْبانَ غُلْبٌ فولّتِ*

وَأفْلَتَهُمْ قَيْسُ فَقُلْتُ لعلـــــهُ ∴ يَبِلّ لَئِنْ كَانَتْ بِهِ النَّعْلُ زَلّتِ*

عناصر العصبية القبلية في العصر الجاهلي :

كان التعصب العربي والالتزام بالقضايا المصيرية أول عناصر العروبة وركائزها في العصر الجاهلي، فالقبيلة هي الأساس الذي بنى عليه العرب نظامهم الاجتماعي، "وكان انتساب العربي إلى قبيلته بمثابة هوية شخصية له، وهم يرون أن هذا الانتساب ما نراه نحن اليوم في الانتساب إلى الوطن" [13].

وقد استمرت العصبية القبيلة حتى بعد بزوغ فجر الإسلام " على أن إخلاص الرجل لقبيلته كثيراً ما يتعرض لامتحان قاس نتيجة اصطدام العصبية بعوامل أخرى، وفي الغالب تكون نتيجة هذا الصراع في صالح العصبية"[14].

ومن الأمثلة على سمو العصبية العربية على ما سواها، وتضحية العربي في سبيل أمته وأبناء قومه ما يجده الباحث في أشعار النابغة الذبياني، والمقنع الكندي في قوله[15] : [من الطويل].

فَإنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَتُ لُحُومَهُمْ ∴ وإنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُم مَجْداً

* بذخت : تكبرت – أذلت : تاهات غروراً وعجباً .

* بنو الأحرار: الفرس – غلب : جمع أغلب : الغليظ العنق ، هو كناية عن القوة ومتانة البنية .

* قيس : هو قيس بن مسعود – يبل : يذهب – زلت به النعل : أخطأ . ويظهر أن قيس قد هرب لما أحس أن كسرى قد شك فيه. ويتمنى الأعشى هنا أن يكون قيس قد عاد إلى صوابه بعد أخطائه.

وقد كانت العصبية القبيلة ضرورة لا غنى عنها للحفاظ على بقاء القبيلة، واستمرار كيانها، وباتت ضرورة من ضرورات الحياة توجه كثيراً من سلوكيات أبناء القبائل حينئذ.

وتأتي مآثر القيم الأخلاقية ركيزة ثانية، حيث المنازعات والغارات والحروب أمر لابد منه للدفاع عن الحمى والديار.

لذا مجد الشعراء الجاهليون الشجاعة والقوة، أمثال : قريط بن أنيف، وطرفة بن العبد البكري، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وعنترة، وقد تفنن هؤلاء الشعراء في وصف أدوات القتال؛ لأنها كانت الأدوات التي يستخدمونها للدفاع عن عروبتهم .

يقول قريط بن أنيف[16] : [من البسيط].

قوم إذا الشرّ أبدى ناجِذَيه لهم ∴ طَارُوا إِلَيْه زرافاتٍ وَوُحَدَانَا

لاَ يَسْأَلُوْنَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ∴ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَاناً

ويقول طرفة بن العبد[17] : [من الطويل].

ولاَ تَجْعَلِيني كامْرِئٍ لَيْسَ هَمُّهُ ∴ كَهَمِّي وَلا يُغنِي غِنَائِي وَمشْهَدِي

وَلَكِنْ نَفَى عنِّي الرِّجالَ جَراءَتِي ∴ عليهِمْ وإِقْدَامِي وَصِدْقِي وَمَحْتِدِي

لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمةٍ ∴ نهارِي ولاَ لَيْلِي عَلَيَّ بِسِرْمدِ

ويقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي[18] : [من الكامل].

لَمَّا رَأَيْتُ نِسَـــــــاءَنَا ∴ يَفْحَصْنَ بِالمَعْـــــزَاءِ شَدَّا

وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنَّهَـــــا ∴ بَدْرُ السمـــاءِ إِذَا تَبَدَّى

وَبَدَتْ مَحَاسِنُهَـــــا التِي ∴ تَخْفَى وَكَـــانَ الأَمْرُ جِدّا

نَازَلْتُ كبشَهُمُ وَلَـــــمْ ∴ أَرَ مِنْ نِزَالِ الكَبْشِ بُدَّا

ويقول عنترة[19] : [من الكامل].

لَمَّا رأيْتُ القَوْمَ أقْبَلَ جمعُهُمْ ∴ يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ*

يَدْعُونَ عنتَر والرِّمَاحُ كأنَّهَا ∴ أشْطَانُ بِئْرٍ في لَبَانِ الأدْهَمِ*

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وأَبْرَأَ سُقْمَهَا ∴ قِيْلُ الفوارِسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ*

كما تغني العرب بظاهرة الكرم وسط ظروف الصحراء القاسية التي تركت آثاراً طيبة، فصقلت شخصيتهم ووسمتها بمياسم خاصة، كالصبر والصلابة والمروءة، والإقدام، وهو من أسباب السيادة والمجد، يقول حاتم الطائي[20]: [من الطويل].

يَقُولُونَ لِي أهْلَكْتَ مَالَكَ فاقْتَصِدْ ∴ وَمَا كُنْتُ لَوْلاَ مَا تَقُولُونَ سَيِّدا*

وقد نال الكرم مكانة متميزة في الشعر العربي، وقد تغنى به شعراء عديدون أمثال : عروة بن الورد العبسي، وعمرو بن الأهتم، ويبدو أن للعربي فلسفة خاصة في الكرم، فهو يشكل لديه قيمة اجتماعية مثلى تصل إلى درجة التقديس.

يقول عروة بن الورد[21] : [من الكامل].

مَا بالثَّراءِ يَسُودُ كُلُّ مُسَوَّدٍ ∴ مُثْرٍ ولكِنْ بِالفِعَالِ يَسُودُ*

ويقول عمرو بن الأهتم[22] : [من الطويل].

ذريني فإنَّ البخلَ يَاأمُّ هَاشِمٍ ∴ لصالحِ أخلاق الرِّجالِ سَرُوقُ

ومستنبحٍ بعد الهدوءِ دعوتُهُ ∴ وقْد حَانَ مِنْ نجمِ الشتاء خُفُوقُ

* يتدامرون: يحض بعضهم بعضاً على القتال .

* أشطان: جمع شطن، وهو حبل البئر، شبه الرمح به لطوله – اللبان : الصدر – والأدهم : الفرس الأسود.

* وي: كلمة يقولها المتندم إذا ندم على ما فرط منه ولكثرة استعمالها الحقتها الكاف وقيل وي بمعنى أعجب أو عجباً يا عنترة، أقدم وخض المعركة. فقد أعددت نفسك لها ولأمثلها.

* اقتصد: لا تكن مسرفاً أو مبذراً ، أي ادخر المال – يقول لولا انفاقي المال ، وإهلاكه في البر وصون أعراض القبيلة ما كنت سيّداً في عشيرتي.

* الثراء : الغنى – يسود: يصبح سيداً – يقول إن السيادة لا تكون بالغنى بل بالفعال الحميدة الحسنة .

يعالجُ عِرْنيناً منَ الليلِ بارداً ∴ تَلُفُّ رياحُ ثَوْبَهُ وَبُرُوقُ
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَباً ∴ فَهَذَا صَبُوحٌ رَاهنٌ وَغَبُوقُ
وقُمتُ إلى البَرْكِ الهَوَاجِدِ فاتَّقَتْ ∴ لَهَا من أمامِ المنكبيَنْ فَتِيقُ
فباتَ لنا منها وللضَّيْفِ مَوْهِنَا ∴ سِواءٌ سِمِينٌ زاهنٌ وغبوقُ
وبات لهُ دُونَ الصّبَا وهْيَ قَرّةٌ ∴ لِحافٌ وَمصْقُولُ الكِسَاءِ رَقِيقُ

وثالث هذه العناصر(المروءات العربية) التي تتجلى في نجدة المستغيث وإغاثة الملهوف والوقوف بجانب العربي وقت الشدة في وجه الخطر الذي يهدد القبلية، ويتغنى بشامة بن حزن النهشلي بالمروءات العربية فيقول[23] : [من البسيط].

إِني لمنْ معشرٍ أفنى أوائلهم ∴ قيلَ الكُمَاةِ ألا أينْ المُحَامُونَا؟
إن تبتدرْ غايةً يوماً لمكرمةٍ ∴ تلق السوابق مِنَّا والمُصَلِينَا
إنَّا لنرخصَ يَوْمَ الروعِ أنفِسنَا ∴ ولو نسامُ بِها فِي الأمنِ أغْلِينَا

وقد ضرب العرب بسهم وافر في ميدان الشجاعة فهم " قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح "[24].

ومن المروءات التي تغنوا بها، الإباء ورفض الذل والهوان، " فكل عربي معتز بنفسه، يأنف أن يخضع لغيره"[25]، وقد ظهر ذلك بوضوح تام في أشعار المتلمس الضبعي، والشنفرى، وعمرو بن الأطنابة.

يقول المتلمس الضبعي[26] : [من البسيط].

إنَّ الهوانَ حِمَارُ الأهلِ يَعْرِفُهُ ∴ والحُرُّ يُنكِرُهُ والرَّسلَةُ الأجُدُ
ولا يُقِيمَ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ ∴ إلاَّ الأَذَلاَّنَ عيرُ الحي والوَتَدُ
هَذَا عَلَى الخَسفِ منقولُ بِرُمَّتِهِ ∴ وذا يُشجُّ فَلاَ يَبْكِي لَهُ أَحَدُ

ويقول الشنفرى في لاميته[27] : [من الطويل].

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حتى أُمِيتَهُ ∴ وأضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فَأُذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْ لا يُرَى لَهُ ∴ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

ويفخر عمرو بن الأطنابة بمروءات قومه وفضائلهم قائلاً[28] : [من الكامل].

المانعينَ من الخَنَا جَاراتِهِم ∴ والحَاشِدِينَ عَلَى طَعَامِ النَّازِلِ

والخَالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيّهُم ∴ والبَاذِلِينَ عَطَاءهم للسَّائِلِ
والضارِبِينَ الكَبْشَ يَبرُقُ بَيْضُه ∴ ضَرْبَ المُجَهْجِه عَنْ حياضِ الآيلِ
والقائِلِينَ فَلاَ يُعَابُ كَلاَمُهُمْ ∴ يَوم المَقامةِ بِالقضاءِ الفاصِلِ

تهيأت الحياة العربية قبل الإسلام لحدث هام يهز المجتمع العربي من الأعماق، يتمثل ذلك في الدين الإسلامي الذي أخذ يدعو أن يكون الناس إخوة تربطهم رابطة الدين.

وقد حارب الإسلام نزعات العصبية القبلية ودعت الآيات الكريمة إلى التخلي عن الروح القبلية، لتحل محلها روابط الأخوة الإسلامية قال تعالى : ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾[29].

وقد ورد عن الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – مجموعة من الأحاديث الشريفة التي تنبذ العصبية الجاهلية، وتنفر منها[30]، قال عليه الصلاة والسالم : " من قاتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتلته جاهلية"[31]. وقال عليه الصلاة والسلام : " من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم "[32]، ودعا إلى ترسيخ الرابطة الدينية حتى تتمكن في القلوب وترسخ في النفوس، وقد جعل – صلى الله عليه وسلم – مراتبها منوطة بالإيمان والعقيدة، فقال: "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا "[33].

وما لبثت العصبية القبلية أن ظهرت في حرب الردة في عهد أبي بكر الصديق – رضي الله عنه–، وقد عبر عن ذلك الحطيئة جرول بن أوس في نزعة عصبية وروح جاهلية. يقول[34]: [من الطويل].

أَطَعْنَا رسُولَ اللهِ مَا كَانَ بَيْنِنَا ∴ فَيَا لِعِبَادِ اللهِ مَا لأبِي بَكْر
أيورثها بكراً إذَا مَاتَ بَعْده ∴ وَتلْكَ لَعَمْرُالله قَاصِمَةَ الظّهْرِ
فهلا رددتم وفدنا بِزمانِه ∴ وَهَلا خَشِيتُمْ حِسَ رَاغِيَّة البِكْرِ
وإن التِي سَامُوكُمْ فَمَنَعْتُمْ ∴ لكالتمر أو أحلى إلي مِنَ التَّمْرِ

ويصور الحطيئة تحالف عبس وذبيان أيام الردة يقول[35]: [من الوافر].

أَلَمْ تَرَ أنَ ذُبْيَاناً وعبساً ∴ لَبَاغِي الحربِ قَدْ نَزَلا بَرَاحَا
يُقَال الأحربانُ ونحنُ حيٌّ ∴ بَنُوعم تَجْمَعْنَا صَلاَحَـــــــا

مَنَعْنَا مَدْفَعَ الثَّلبوتِ حتّى ∴ تُرِكْنَا راكِزِينَ بِهِ الرِّمَاحَـــا
نُقَاتِلُ عَنْ قُرى غَطفانَ لَمَّا ∴ خَشِينَا أَنْ تَذِلَّ وأَنْ تُبَاحَا

وأدرك زعماء القبائل العربية المرتدة قوة الدولة الإسلامية مما أدى إلى انحسار نزعات الانفصال والتشرذم في نفوسهم فعرفوا أن عهداً جديداً قد بدأ.

وما لبثت العصبية القبلية أن ظهرت من جديد في عهد الإمام علي – كرم الله وجهه– وقد تغنى بهذه العصبية عدد من الشعراء أمثال : الحصين بن منذر الرقاشي، وأبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني، والواضح أن النعرة القبلية قامت بدور فاعل في توجيه الكثير من أحداث هذه الفترة، وتركت أثاراً سلبية فيما بعد.

يقول الحصين بن منذر الرقاشي[36] : [من الطويل].

رَأَتْ مضرُ صَارتْ رَبيعةُ دُونها ∴ شعارُ أمير المؤمنينَ وذَا الفضلُ
فأبدوا لنا مما تجن صدورهم ∴ عَلَيْنَا مِنْ البَغْضَاءِ وَذَاكَ لَهُ أَصْلُ
فأبلوا بَلاَنَا أو أَقروُا بِفَضْلِنَا ∴ وَلَن تَلحْقُونَا الدَّهْرَ مَا حَنَتْ الإبلُ

ويقول أبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني[37] :[من المقارب].

لَقِيـــــنَا قَبَائِلَ أنْسَابُهُـــــم ∴ إلى حَضْرَمُوتٍ وَأَهْلِ الجُنْدُ
فَلَمَّا تَنَادُوا بِآبَائِهِـــــــم ∴ دَعَوْنَا مَعَدّا وَنِعْمَ المعدُ

وهكذا أدى ظهور الدين الإسلامي إلى إضعاف جماح النزعة العصبية القبلية في نفس العربي ليحل مكانها نظام الدولة الإسلامية.

وقد سعى الإسلام لينقل الناس جميعاً إلى كثير من القضائل والمروءات، وقد عبر عن ذلك المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله : " إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارم الأَخْلاقِ"،[38] وبذلك كان هذا الدين الرسالة التي خطت مجرها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهداً كبيرا في مد شعاعها، وجمع الناس حولها لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعوا إليها على بصيرة[39].

الخاتمة:

بعد هذا البحث في موضوع أثر العصبية القبلية في شعر العصرين الجاهلي وصدر الإسلام، نصل إلى العديد من النتائج، والتي يمكن أن تتلخص في النقاط الآتية :

1. رغم اشتداد العصبية القبلية وتأججها في نفوس العرب، وما رافقها من منازعات ومشاحنات– في العصر الجاهلي – لم يمنع ذلك من تكتلهم وتوحدهم في مواجهة التحديات الخارجية، كان الرفض لهذه التحديات يقوي الإحساس العربي لديهم.
2. أدى الشعر العربي دوره في مواكبة الأحداث المصيرية في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، كما كان فاعلاً ومؤثراً في تحريكها والنفاذ إلى ما ورائها من شحذ الهمم، وإثارة الحماسة، فكان بذلك عاملاً قوياً في إذكاء الإحساس العربي الذي تختلج به ضمائر العرب؛ لذا يحث الشعراء العرب – في العصر الجاهلي وصدر الإسلام– بعقول واعية مستنيرة عن قبس من نور يهتدون به ليقودوا أمتهم إليه، ذلك هو واجبهم، وتلك هي رسالتهم في الحياة.
3. لم تكن فضائل الأخلاق ومآثر القيم والمروءات التي تحلي بها عرب الجاهلية وليدة فترة ما، بل كانت امتداداً لأعراف وتقاليد الآباء والأجداد حافظوا عليها وحرصوا على تطبيقها في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، فكانت بذلك شكلاً من أشكال الترابط العربي بين أبناء الأمة الواحدة.
4. ثمة تلاحم جوهري وثيق بين العرب والإسلام، وهو أساس قوة العرب في عصر صدر الإسلام لذا يحاول أعداء أمتنا العربية الإسلامية الفصل بين جزئي هذه المعادلة الواحدة، بل وإيجاد التخاصم والتناحر بين أبناء العرب.
5. إن اتجاه الإحساس العربي راسخ في وجدان أبناء العرب، وفي فكرهم، وجذوره عميقة في تراثنا الشعري في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

الهوامش:

(1) للتوسع في هذا الموضوع انظر :

- النويري، أحمد بن الوهاب، نهاية الأرب، ط دار الكتب مصر 1929م، 292/2 وما بعدها.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية، القاهرة، 139/1.
- الرازي، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق، عمر فاروق الطباع، ط مكتبة المعارف، بيروت ن 1993م ص76.
- أمين، أحمد ، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م، ص5.

(2) الصمد، واضح، أدب صدر الإسلام، ط1، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، بيروت ، 1414هـ، 1994، ص28.

(3) ابن أبي الصلت، أمية، ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق عبد الغفور، ط المطبعة التعاونية، دمشق، 1977، ص343.

(4) ابن أبي سلمى، زهير، ديوان زهير بن أبي سلمى المزني العطفاني، ط دار صادر، بيروت، ص108.

(5) ابن ربيعة، لبيد ، ديوان لبيد، تحقيق إحساس عباس، ط الكويت، 1962م، ص132.

(6) بيلو، صالح آدم ، كتابة الشعر وتدوينه في الجاهلية، مركز الولاء للخدمات العلمية، مكة المكرمة، 1415هـ – 1994م، ص14.

(7) الضبي، المفضل، بن محمد، المفضليات، تحقيق عبد السلام هارون، ط دار المعارف، مصر 1964م، ص7-8.

(8) النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، ديوان النابغة، ط دار صادر، بيروت، ص66.

(9) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، ط لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة، 1951م، ص104.

(10) الإيادي، لقيط بن يعمر ، ديوان لقبط بن يعمر الإيادي، ط دار الأمانة، بيروت، 1971م، ص27.

(11) المولى بن بك، محمد أحمد جاد، والبجاوي، علي محمد، وإبراهيم ، محمد الفضل، أيام العرب في الجاهلية ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت، ص6 وما بعدها.

(12) الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى، ط دار صادر، بيروت، 1994م، ص33.

(13) عزام، محمد ، قضية الالتزام في الشعر العربي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1989م، ص35.

(14) النص، إحسان، العصبية القبلية، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ص111.

(15) التبريزي، أبوبكر زكريا يحيى بن علي ، شرح حماسة أبي تمام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط السعادة، القاهرة، 1938م 171/3.

(16) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين، شرح ديوان الحماسة، 27/1.

(17) قميحة، مفيد ، تقديم وشرح، شرح المعلقات العشر، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1987م، ص120-121.

(18) ابن معد يكرب، عمرو، ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ط دار صادر، بيروت، ص68.

(19) بن شداد، عنترة ، ديوان عنترة بن شداد العبسي، ط دار صادر، بيروت، ص29-30.

(20) الطائي، حاتم بن عبدالله بن سعد، ديوان حاتم الطائي، ط دار صادر، بيروت، ص41.

(21) ابن الورد، عروة ، ديوان عروة بن الورد، ط دار صادر، بيروت، ص49.

(22) الضبي، المفضل بن محمد، المفضليات، تحقيق عبد السلام هارون، ط دار المعارف مصر، 1964م، ص125.

(23) التبريزي، أبوبكر زكريا يحيى بن علي، شرح حماسة أبي تمام، ص25.

(24) ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، ط دار العودة، بيروت، 1996م، ص99.

(25) الحوفي، أحمد ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط دار القلم، بيروت، 1972م ص355.

(26) البحتري، أبو عبادة بن الوليد بن عبيد الطائي، حماسة البحتري، تحقيق لويس شيخو، ط الكاثوليكية، بيروت، 1910م، ص19.

(27) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، أعجب العجب في شرح لامية العرب، ط حجر، مصر ص48.

(28) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين، شرح ديوان الحماسة، 164/4.

(29) سورة الفتح، الآية،26.

(30) ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن زيد، كتاب السنن (باب العصبية)، 241/2.

(31) نفس المصدر (باب العصبية)، 241/2.

(32) نفس المصدر، 241/2، والمسند، 107/4.

(33) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، 178/4.

(34) الحطيئة، جرول بن أوس، ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه، ط الحلبي، القاهرة، 1985م، ص329.

(35) ابن الأثير، علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط القاهرة، 1285هـ، 282/4.

(36) ابن أبي الحديد، عزالدين عبدالحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ط القاهرة، 1329هـ، 502/1.

(37) المنقري، نصر بن مزاحم ، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، ط القاهرة، 1365هـ، ص348.

(38) رواه أحمد في المسند رقم، 8595.

(39) الغزالي، محمد ، خلق المسلم، دار البيان، الكويت، 1970، ص 6-7.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن أبي الحديد، عزالدين عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، القاهرة، 1329هـ.
3. ابن أبي الصلت، أمية، ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق بهجت عبد الغفور، ط المطبعة التعاونية، دمشق، 1977م.
4. ابن أبي سلمى، زهير ، ديوان زهير، ط دار صادر، بيروت.
5. ابن الأثير، علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط القاهرة،/ 1285هـ.
6. ابن الورد، عروة ، ديوان عروة بن الورد، ط دار صادر، بيروت.
7. ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، ط مصر، 1313هـ.
8. ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، ط دار العودة، بيروت، 1996م.
9. ابن ربيعة، لبيد ، ديوان لبيد، تحقيق إحسان عباس، ط الكويت، 1962م.
10. ابن شداد، عنترة، ديوان عنترة بن شداد العبسي، ط دار صادر، بيروت.

11. ابن ماجه، أبوعبدالله محمد بن يزيد، كتاب السنن (باب العصبية).
12. ابن معد يكرب، عمرو ، ديوان عمرو بن معد يكرب، ط دار صادر، بيروت.
13. الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى، ط دار صادر، بيروت، 1994م.
14. الإيادي، لقيط بن يعمر، ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، ط دار الأمانة، بيروت، 1971م.
15. البحتري، أبو عبادة بن الوليد بن عبيد الطائي، حماسة البحتري، تحقيق لويس شيخو، ط الكاثوليكية، بيروت، 1910.
16. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، راجعها ووضع فهارسها، محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار التقوى للتراث، 1421هـ، 2001م.
17. التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط السعادة، القاهرة، 1346هـ – 1938م.
18. الحطيئة، جرول بن أوس، ديوان الحطيئة، تحقيق نعمان أمين طه، ط الحلبي، القاهرة، 1958م.
19. الحوفي، أحمد ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط5، دار القلم، بيروت، 1972م.
20. الرازي، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، الصحابي في فقه اللغة العربية، ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر فاروق الطباع، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1993م.
21. الزمخشري، جارالله محمود بن عمرو، أعجب العجب في شرح لامية العرب، ط حجر، مصر.
22. الصمد، واضح، أدب صدر الإسلام، ط1، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1414هـ – 1994م.
23. الضبي، المفضل بن محمد، المفضليات، تحقيق عبد السلام هارون، ط دار المعارف، مصر، 1964م.
24. الطائي، حاتم بن عبد الله بن سعد، ديوان حاتم الطائي، ط دار صادر، بيروت 1981م.
25. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم الملوك، المطبعة الحسينية، القاهرة.
26. الغزالي، محمد ، خلق المسلم، دار البيان، الكويت، 1970م.

27. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة، 1951م.

28. المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1365هـ.

29. المولى بك، محمد أحمد جاد، والبجاوي، علي محمد وإبراهيم، محمد الفضل ، أيام العرب في الجاهلية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

30. النابغة الذبياني، زياد بن معاوية ، ديوان النابغة الذبياني، ط دار صادر، بيروت.

31. النص، إحسان ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت.

32. النويري، أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب، ط در الكتب، مصر، 1929م.

33. أمين، أحمد ، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م.

34. بيلّو، صالح آدم ، الشعر وتدوينه في الجاهلية، مركز الولاء للخدمات العلمية، مكة المكرمة 1415هـ 1994م.

35. عزام، محمد، قضية الالتزام في الشعر العربي من العصر الجاهلي، وحتى عصر الانحطاط، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1989م.

36. قميحة، مفيد، تقديم وشرح، شرح المعلقات العشر، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1987م.